الرحلة 409 في

دوران حول الصندوق

قليل هو جديد اليوم الرابع لكارثة الطائرة. انحصرت الأخبار «الطازجة» بتأكيد سلاح الجو اللبناني أنّ الذبذبات التي رصدتها السفينة الأميركية «يو أس أس رامج»، صادرة عن الصندوقين الأسودين. أما بالنسبة إلى الضحايا، فلم تعثر فرق الإنقاذ إلّا على أشلاء نُقلت إلى مستشفى بيروت الحكومي التي أعلن منها وزير الصحة تحديد هويتي جثتي آنا عبس وعلي أحمد جابر، الذي تسلمت عائلته جثته مساءً

راجانا حمية

خلع العامل في مشرحة مستشفى بيروت الحكومي أمس زيّه الأخضر. كان هذا الزي حتى ليل أول من أمس يوحي للواقفين أمام باب غرفة الموت بأحد احتمالين: إما تسلّم جثث جديدة آتية من البحر، وإما تسليم جثثٍ قابعة في ثلاجات الانتظار إلى عائلاتها. لكن، لا شيء حصل طوال النهار، فكان يجب على الحاضرين انتظار المساء لاكتشاف جديد اليوم الرابع من الكارثة. لكنه كان جديداً شحيحاً، اقتصر فقط على تسليم عائلة علي أحمد جابر جثة ابنها بعد التأكد من بصمته الجينية (ونُقل إلى مستشفى الرسول الأعظم)، وإعلان وزير الصحة العامة التأكد من هوية آنا عبس. أما الجثة الثالثة، التي كان متوقعاً إعلان هويتها، فلم تصدر نتائج فحصها حتى ساعة متأخرة من ليل أمس. وفي ما يخصّ جثث الإثيوبيين الخمسة المشوهة، فقد لفت خليفة إلى أن «بعثة متخصصة في مجال الحمض النووي، تابعة للمختبرات الجنائية في قوى الأمن الداخلي، ومكلفة من النيابة العامة التمييزية، ستتوجه اليوم إلى إثيوبيا، لأخذ عيّنات من أهالي الضحايا ومقارنتها بتلك المأخوذة من الجثث في المختبر الجنائي في ثكنة الحلو». هكذا، مرّ اليوم الرابع من الكارثة أمام مشرحة مستشفى بيروت الحكومي. لكن، هذا الهدوء هنا لم ينسحب على ما كان يحصل على الشاطئ. فخبر تحديد مصدر الذبذبات الصادرة عن الصندوق الأسود وبعض أجزاء الطائرة المنكوبة، كثّف من عمليات البحث في البقعة المحددة التي قيل إنها جرف بحري على عمق 1300 متر.

وكما على الشاطئ، كذلك كان العمل في أروقة الوزارات المعنية بمتابعة التطورات. فعند الساعة السابعة مساءً، عقد رئيس مجلس الوزراء سعد الحريري اجتماعاً وزارياً أمنياً قضائياً، لعرض آخر المعلومات المتعلقة بحادثة سقوط الطائرة والجهود المبذولة في عمليات البحث والإنقاذ والتنسيق بين مختلف الإدارات المعنية في هذا الخصوص. وقد أكد وزير الإعلام طارق متري في نهاية الاجتماع «أن عمليات البحث عن الضحايا والطائرة أيضاً مستمرة». ولفت إلى «أن سلاح الجو اللبناني أكد أن الذبذبات صادرة عن الصندوقين الأسودين، وحُددت منطقة البحث، وهي تمتد على مساحة 7 كلم2، على بعد 14 كلم من الشاطئ». وتطرق متري إلى آلية البحث، لافتاً إلى «أنّ من المفترض أن تصل الغواصة إلى العمق المطلوب لالتقاط صور وبثّها إلى سفينة أوشن آلرت لمعرفة وضع الطائرة وتأكيد موقعها، على أن تبدأ بعد ذلك المرحلة التالية». ومن المفترض خلال هذه المرحلة «الاستعانة بغواصة مؤهلة للنزول إلى الأعماق وانتشال ما يجب انتشاله».

ومساءً، نفى وزير الأشغال العامة والنقل غازي العريضي، في اتصال مع «الأخبار»، ما تردد من شائعات عن انتشال الصندوق الأسود. ورداً على سؤال، قال الوزير: «الشغل مستمر خلال الليل، لكن حتى الآن لا شيء إضافياً على ما كنا قد قلناه في النهار». وكان العريضي قد أشار إلى أن سفينة «أوشن آلرت» المكلفة من السلطات اللبنانية، بدأت منذ الصباح مسحاً شاملاً للمنطقة التي تصدر عنها ذبذبات، للوصول إلى المنطقة المحددة التي تستقر فيها الطائرة».

من جهةٍ أخرى، لفت مصدر مطلع في المطار إلى أن «المدة الزمنية لانتشال الصندوق ترتبط بما إذا كان هذا الصندوق لا يزال مثبّتاً في هيكل الطائرة أو أنه انفصل عنها». ونبه إلى أن «الحالة الأولى ستصعّب الانتشال، ما يجعلها تستغرق وقتاً أكثر، نظراً لكونها تستوجب الاستعانة بمعدات خاصة قادرة على انتشال أوزان من عمق 1300 متر إلى سطح البحر». من جهته، تشكك رئيس نقابة الطيارين اللبنانيين محمود حوماني، في اتصال مع «الأخبار»، في أن «تكون الطائرة والصندوقان على عمق 1300 متر»، مشيراً إلى «أنه في حال وجودها على هذا العمق، من المؤكد أن عملية انتشالها ستستغرق نحو 3 أيام». كذلك أكد حوماني «أن الذبذبات التي رُصدت لا يمكن أن تكون صادرة عن صندوق أسود واحد، بل عن الصندوقين، التقني والمكالمات، وذلك لأنه لا يمكن أن يكون أحدهما مفصولاً عن الآخر». وإن كان حوماني لا يستبعد إمكان أن يكون «الصندوقان قد انفصلا بدورهما عن الطائرة بعد تحطمها»، إلا أنه يشدد «على أنهما لا يمكن أن يبتعدا كثيراً عن مكان وجودها»، لافتاً أيضاً إلى «أنهما لا يمكن أن ينفصلا وحيدين، بل سيكونان مربوطين بجزءٍ من الطائرة». لكن، مع ذلك، يشير حوماني «إلى أنّ انفصال الصندوقين يتعلّق بوضعية سقوط الطائرة، فإن كانت قد سقطت على ذيلها، فإن احتمال الانفصال كبير، أما إن كانت قد سقطت على المقدمة، فمن المستبعد انفصالهما عنها». في إطار آخر، لفت حوماني إلى أن «هناك صندوقاً أهم من الآخر، هو الصندوق التقني (دي. أف. دي. آر)، لكونه يسعف التحقيق أكثر من الصندوق الخاص بالمكالمات». وعن أجزاء الطائرة التي انتُشلت، رجح حوماني أنّ «من المحتمل أن تكون من الجناح الخلفي للطائرة، وهو في منطقة وسطى لا يمكن أن يتحدد على أساسها انفصال الصندوقين أو عدمه». وفجر أمس وصل إلى مطار رفيق الحريري الدولي المحقق في شركة بوينغ، ريتشارد أندرسون، وممثل المكتب الفدرالي لسلامة الطيران الأميركي، دنيس جونز. ووصل أيضاً الرئيس السابق للمكتب الفرنسي للتحقيق في حوادث الطيران، بول لوي أرسلانيان، وهو مكلف من السلطات الفرنسية مواكبة العملية.

وعقب اكتمال نصاب المحققين الأجانب، عُقد اجتماع عمل في المطار، ضم إلى المحققين، أعضاء اللجنة المكلفة التحقيق والمدير العام للطيران المدني حمدي شوق والوفد الإثيوبي. وقد عُرض خلاله ما جرى التوصل إليه والآلية المتبعة علمياً في مجال متابعة عمل فرق الإنقاذ على انتشال ركاب الطائرة والصندوقين.

أما في أخبار الشاطئ، فقد أعلن الدفاع المدني «أن دورية الإنقاذ البحري التابعة لفوج إطفاء بيروت تمكنت من العثور على قطعة من الطائرة على شاطئ الرملة البيضاء، وسُلّمت إلى غرفة العمليات المستحدثة في القاعدة البحرية للجيش اللبناني».

تلامذة يضعون وردا على مياه البحر حيث سقطت الطائرة (بلال جاويش)

1300 متر يقابلها 1300 تحليل

بعض اللبنانيين ناقم على السياسيين، وبعضهم لمس في الموت ما قد يوحّد شعباً مزّقته التجاذبات خلال سنوات خلت. هكذا، نام الصندوق الأسود في عمق البحر، ولم تنم أسئلة المواطنين عن السبب. الناس خائفون من تكرار الأمور ذاتها، فتنام الحقيقة أيضاً، إلى جانب الأجساد البحرية، في وحشتها

أحمد محسن

منذ ثلاثة أيام، والحياة معطّلة في شوارع العاصمة. قلوب الناس تخفق لصور البحث عن حطام الطائرة، وعقولهم لا تتوقف عن استباحة التحقيقات. يريدون أن يفهموا ما الذي أتى بهذا الموت الكثير إلى بيوتهم. بعد ثلاثة أيام، تنسحب الصدمة تدريجاً من وجوه أصحابها. لكن، رغم كل شيء، الناس لا يمكنهم أن يسكتوا. في بلد الأسئلة الكثيرة لا بد من بحث مستمر عن أجوبة في صفوف المواطنين العاديين، في ضوء الصمت الرسمي المخيف. الأمر ليس مستغرباً، ما دامت الحركة السياسية الكثيفة قد اقتصرت على المؤتمرات الصحافية والوعود. لا جديد في الشارع، وتحديد مكان الصندوق الأسود ليس كافياً. منذ اللحظات الأولى للكارثة والناس يمطرون بعضهم بعضاً بالأسئلة والشائعات.

«أميركا ليست كاريتاس»

«إنه صاروخ إسرائيلي». نيبال، الطالبة العشرينية، مقتنعة بذلك. يزعجها حضور الأسطول الأميركي سريعاً، وتؤمن أنه أتى ليسطو على الصندوق الأسود. في رأيها، الأقاويل عن وجود أفراد من المقاومة على متن الطائرة ليست شائعات، و«إلا فلماذا خرج السيد حسن نصر الله سريعاً؟ ولماذا ألغى النائب نوار الساحلي حجزه؟». لا تضع الحسابات الاجتماعية والسياسية للحزب في معرض تحليلاتها. نيبال مقتنعة بوجود «مؤامرة». شبابها ليس وحده سبباً للاندفاع، فعلي، سائق الأجرة الأربعيني، يزايد عليها في اتهام الأميركيين. لا يثق بهم. حتى لو وجدوا الصندوق الأسود، لا أحد يضمن له أن الأميركيين «لن يسرقوه». ورغم هول المأساة، وتأثره الشديد بالعدد الكبير من الضحايا، يعزز تحليلاته بمزحة: «أميركا ليست كاريتاس». وفي سياق «التحقيق الشعبي» المتواصل، توافقه إحدى الراكبات. ابنة تلك السيدة مهندس ميكانيك، كما تقول. أخبرها أن الطائرة حديثة، مستبعداً وجود أيّ أعطال فيها. وعلى هذا الأساس، ترى أن الحديث عن خلل تقني «ضحك على الناس». ولولا بعض الأجساد التي طافت على سطح البحر، لكان كل شيء مجهولاً بالنسبة إلى ركاب تلك السيارة، ولربما امتدت تحليلاتهم إلى «ما بعد بعد الأسطول السادس». هكذا، خرج كلّ ليفسّر الحدث على طريقته، فعلى عكس علي، ونيبال، رحبت ساندرا بالتدخل «الأميركي الإنساني السريع». خالفتهما رأيهما تماماً، وجاء ترحيبها على خلفية إنسانية صرفة، كما تقول. هكذا، هم اللبنانيّون أبداً، وحّدتهم الفاجعة، وعبثت السياسة بمحاولات انتظارهم. انتظار ما يسمّونه هنا «الحقيقة».

> **اللبنانيون متحدون في الألم ولا شيء سواه**

التيار المنفعل X التيار العقلاني

يمكن أن يفسّر رد الفعل الشعبي على مأساة الطائرة الإثيوبية الميل اللبناني الطبيعي إلى السياسة. كثر الحديث عن الخطوط الجوية اللبنانية، كأنّ كل الرحلات السابقة إلى أفريقيا كانت تنجو «بعون الله». خرجت بعض الغرائز فجأةً، من رحم الألم، لتستعيد خطاباً طائفياً في غير توقيته الآن تحديداً. حسن، الموظف في أحد مصارف بيروت الكبرى، لا يقيم للفاجعة اعتباراً. يرى أن «طائفته مستهدفة». لا يجد حرجاً في إعلان ذلك، متخطّياً حجم المصيبة. وعلى رغم «وجود طوائف أخرى على الطائرة» فإن حسن «يعود إلى الأسباب». ووفقاً لمعطياته، لكونه ينتمي إلى إحدى القرى الجنوبية، يربط حادثة تحطّم الطائرة بالإهمال الذي «يلاحق الجنوبيّين منذ دهر». زينة تتخطّاه في تقديراتها. تستعيد المناورات الحربية الإسرائيلية المستمرة، وتذكّر بعدم وجود أي ملاجئ في الجنوب، رغم ما حل بالناس بعد حرب تموز. الطائرة فرصة للشارع، كي يخرج من داخله كائن الخوف، ويضعه على طاولة الحدث. كانت زينة تريد أن تسافر، لكن بعد السقوط الجوي الأخير، صارت تخشى السفر أيضاً.

في الضفة المقابلة من الشارع، مواطنون حصروا غضبهم في دائرة محددة. الحزن على الضحايا. عبد الله أحدهم. يرى أن الشعب اللبناني يجب أن يتخلى عن كل الاستنتاجات التي اعتادها مع كل حدث «المحنة أهم». يحاول أن يكون عقلانياً، متخلّياً عن أي انفعال مفترض «صحيح أن الإهمال صفة تتّسم بها الدولة هنا عادةً، لكن التصرف الرسمي كان مسؤولاً هذه المرة». حتى الآن عبد الله مقتنع بما آلت إليه الأمور شكلياً، وأسهم تحديد مكان الصندوق الشهير في صموده على هذا الاعتقاد. عبد الله مع استخلاص العبر من الموت، ومع النظر بإيجابية إلى المستقبل «كي لا تتكرر أخطاء الماضي». هذا التفاؤل، يقابله تفاؤل أقل حذراً من سيلين، صاحبة أحد المحال التجارية في الدكوانة. تظن الأخيرة أن العطل تقني صرف، ولا مصلحة لأحد بقتل الأبرياء بهذه الطريقة البشعة. تستبعد «نظرية المؤامرة»، ولا يهمها الدولة واليونيفيل. سيلين حزينة على اللبنانيين الذين لم يعودوا، وبودّها تقديم الورود إلى عاملات إثيوبيا.

في الشارع، لم تكن صاعقة ولم يكن عطلاً فنياً، فاللبنانيون لم يقتنعوا بعد بكل الفرضيات المتداولة إعلامياً. نحن هنا، أمام شعب يحلل على مزاجه. يستحضر كثيرون نظرية المؤامرة إلى ارتفاع آلاف الأقدام جواً، ويفسرها على عمق 1300 متر في قعر الأبيض المتوسط. شعب يرحّب بتدخل الولايات المتحدة الأميركية في عين الرمانة، وينزعج منه في الشياح، فيما يرقد الضحايا ذواتهم في البحر ذاته. رغم قسوة الموت، ما زال المتأملون، فريقين، كلٌ له حقيقته التي قد تكون مختلفة تماماً عما قد تكون الحقيقة فعلاً.

اللبنانيون بشر. يشعرون بالألم نفسه إذا مزّق الدمع عيونهم في لحظة الموت. متّحدون في هذا الألم ولا شيء سواه. أما في أجوبتهم عن سبب الكارثة، فبالتأكيد هم منقسمون: شعبان اثنان، ثالثهما ينام موجوعاً خلف البحر.